

على الأرض مريعات وعلى الحجر الأبيض في الجدار نقوش. قيل إن الحجر قطعة من تابوت وإنه كان مدفوناً بالقرب من البئر. زُرعت في بطن البئر أحجار ضخمة نبتت عليها أعشاب شريرة. البارحة زرت البئر بحثاً عن أسرار قديمة وعن دهشة أحتاج إليها كي أفتتح بأنني ما زلت حياً. في البئر أسرار وقصص بنهايات مجهولة، في البئر زمن ولّى.

تركتُ ابتسامته قبل أن يودّعني. كان وداعاً فاتراً غابت عنه الوعود. ينهال الوعد بوزنه على كتفيّ ويظهر في مناماتي، وربما ابتكر لي كابوساً أو اثنين. كأن الوعد مخرج لمسرحية «القلق» الذي ولدتُ منه وولد مني. أما الانتظار، فهو فعل أمارسه دون أن أفكر فيه. أتتّمس وأنتظر، أحزن وأنتظر... أنتظر نهراً جديداً، أنتظر أن أعود إلى أمكنتي التي أحبها، أنتظر أن تتغيّر أيامي، أنتظر أن أغيّر أنا، أنتظر يوماً جديداً، أنتظر أن أموت، أنتظر أن أكره، أنتظر ألا أقع في الحب. لكنني عدت لا أحسب للانتظار حساباً، وعاد الانتظار لا يقهرني. في نيويورك انتظرت أن تنتهي الحرب في لبنان. وعندما تعبت من انتظار انتهاء الحرب، انتظرت أن أحسّ بالانتماء إلى المدينة الجميلة أو إلى دراستي في الجامعة أو إلى وظيفتي أو الفن الذي درست تاريخه.

يوم سافرت، تركتُ ابتسامته أبي قبل أن يودّعني. لم يرّدموعي. نجحتُ في ادعاء الصلابة. انتظرت أن أعود إليه ولم أعد إليه. وحين عدت لم أجده. كان الزمن قد تأخر، وكنت قد تأخرت. منذ أطلعوني على رحيله، عدت لا أنتظر

## بحثاً عن دهشة وأسرار

لم لا نقول للذين ولد  
حبهم فينا مع ولادتنا أو  
ولادتهم إننا نحبهم دوماً  
وإن الخوف عليهم يقطع  
الأنفاس؟

منه. صحوتُ، مشيت إلى غرفتها وأنا أقول لنفسني إنني نائم. أحتاج في ليل طويل أن أتأكد من أنها ما زالت تتنفس. أريد أن أستيق المفاجأة، أن أدوسها قبل أن تنفجر، أن أخرج منها الهواء والنار، لكنها ستبقى مفاجأة. ولن أستطيع الهروب من الإحساس بأنني أقف تحت الماء فاتحاً فمي وبأن المياه تخرج من أذنيّ وعينيّ وبأنني عاجز عن التحكّم بما يجري.

استسلمتُ أمي للنسيان. أخاف حين أجلس على سريرها لتحكي عني كأنها تحكي لغريب. تفاجئني قدرتها على وصفي وتحليل تصرفاتي كأنها فكرت في مواقفي وتحركاتي وحللتها خلال أعوام حياتي كلها، كأنها دونت ملاحظاتها على حياتي بحثاً عن التقرب مني أو معرفتي أكثر. تحكي لي عني ولا تعرف أنني أنا من يستمع إليها. ومن تظنني؟ أسأل نفسي أحياناً بعصبية. رجل غريب يعرّج على غرفتها قبل أن يصل إلى السوق؟

بعد عودتي من نيويورك للاهتمام بها كي لا تغيب قبل أن أودّعها الوداع الأخير كما حصل مع أبي، فقدتُ أمي معرفتها بجغرافيا البيت والحي في بيروت والقرية التي حملتها إليها. ومنذ عودتي أحاول أن أقول لها إنني أحبها. أريد أن ألفظ الجملة كما تُلفظ في الأفلام لا أن أكتفي بالتعبير عنها من خلال تصرفاتي. لم لا أحلّ عواطفني تجاه من ولدتُ وأنا أعرفهم وأحبهم؟ لم لا نقول لمن نحبهم كثيراً إننا نحبهم كثيراً؟ لم لا نقول للذين ولد حبهم فينا مع ولادتنا أو ولادتهم إننا نحبهم دوماً وإن الخوف عليهم يقطع الأنفاس؟

اللحظات التي لا تتكرّر بل أبحث عنها في مشهد أصوره أو في حكايات تخرج من ذاكرة أمي المريضة أو ربما من تهيؤاتها. تركتُ الانتظار وعدت إلى أمي منذ استسلمتُ للنسيان. حين تخرج أمي من صمتها أدون المشاهد التي تصفها بكلمات غزيرة وحماسة أو أفقها عليها حين أنضمّ إليها للبحث عن عقد سرّق منها منذ خمسة وأربعين عاماً قبل أيام من ولادة شقيقي يوسف.

أغلقت لي العتمة الأبواب وتعثّرت كلماتي بنوم خزنته ولم أستطع الخروج

هالة كوثراني  
hala@lahamag.com

